

ابن ميمون بفاس

عبد الهادي التازي

عُرِفَت أسرة ابن ميمون منذ وصول دولة المرابطين إلى الأندلس، بأنها أسرة مرموقة تتولى التقديم على اليهود، أي أنها كانت بمثابة واسطة بين هؤلاء وبين الأمراء المسلمين. ويمكن أن نستشف هذا من المذكرات التي كتبها الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس في معرض حديثه عن أحد اليهود الذي كان ينتسب لهذه الأسرة، وكان الأمير عبد الله سماه واليا على يهود محلة اليُسانة (Lucena) المعروفة باكتظاظها باليهود الذين يردون من كل الجهات.

يقول الأمير عبد الله ما معناه : « لما أمرت بينيان السور المتصل بالحمراء، عثر البناؤون في الأساس على قمقوم مملوء ذهباً، فلما وقفت عليه لقيت فيه ثلاثة آلاف مثقال جعفرية. وكانت دار أبي الربيع اليهودي الخازن

للأموال في دولة جدي مبنية على ذلك الأساس، فعلمنا أنه من ماله المدفون، فأتى ابن المرة يقول لنا ناصحا : أرسلوا عن ابنه يكشف لكم سائر دفائنه. فخاطبناه ليرد علينا، وكان صهره ابن ميمون الذي كنا قد قدمناه على يهود اليُسانة. فاعتذر عن صهره وساء لذلك ظنه. ولم يلبث أن أغرى أهل اليُسانة على النفاق مناديا فيهم : جدّوا معشر بني إسرائيل في حماية أموالكم. « (1).

وإذا كنا نجهل التاريخ المضبوط الذي تم فيه انتقال أسرة موسى بن ميمون من الأندلس إلى المغرب، فإننا، حسب الافادات التي بين أيدينا، يمكن أن نفرض أن ذلك الانتقال تم - تقريبا - في نفس التاريخ الذي عبر فيه الخليفة عبد المؤمن البوغاز من طنجة إلى جبل طارق في ذي القعدة 555 هـ = نونبر / دجنبر 1160 (2).

ولا بد أن نتساءل عن السبب الذي حدا بأسرة ابن ميمون إلى اختيار فاس بالذات مكانا للمقام عوض أي مدينة أخرى من مدن المغرب، هنا ينبغي أن نذكر بأن مدينة فاس كانت تحتضن في تلك العصور نسبة كبيرة من الطائفة اليهودية، بحيث إنها كانت تفوق في هذا الموضوع قاعدة أخرى من قواعد المغرب على ما يذكره البكري (3). ونحن نعلم أن اليهود في عهد المرابطين الذين أتوا مباشرة بعد كتابة المعلومات التي قدمها لنا البكري. كانوا - أي اليهود - يجاورون في سكناهم المسجد الأعظم لمدينة فاس الذي يحمل اسم جامع القرويين (4).

وقد اقترن مقام الأسرة الميمونية في فاس بطائفة من الأخبار والنقول

التي ضاعف من عددها عدم وجود مصادر معاصرة تهتم بأمر التنقل وهذا المقام.

وهكذا سمعنا عن الأسباب والدواعي التي كانت وراء مغادرة الأسرة للأندلس، هل هي بواعث سياسية أم ثقافية أم اقتصادية ؟

وقرأنا كذلك أن موسى بن ميمون أصبح من العلماء المحظوظين الذين يجالسون الخليفة عبد المؤمن الذي كان على حد تعبير بعضهم يفتخر بأنه أخذ الحكمة والعلم عن أبي عمران موسى بن ميمون.

وسمعنا بعد هذا عن النشاط العلمي لهذه الأسرة بالعاصمة فاس، بل وقرأنا عن تحديد المعهد الذي كان يقصده ابن ميمون لتنمية معلوماته والذي لم يكن غير جامع القرويين الموجود في قلب المدينة ...

وأكثر من هذا، ذهبت بعض النقول إلى تحديد الحارة والشارع والبيت الذي سكن فيه ابن ميمون .

وقد تبعت الافتراضات ابن ميمون حتى بعد مغادرته للمغرب واتصاله بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في مصر، حيث قرأنا أنه ربما كان ابن ميمون من بين الذين قدموا وصفا عن الأسطول المغربي لصلاح الدين الذي أرسل سفارته برئاسة ابن منقذ إلى الخليفة المنصور الموحيدي يطلب إليه المساعدة أثناء الحروب الصليبية. وما نزال إلى الآن نتلقى بين الفينة والأخرى أخبارا جديدة عن مقام ابن ميمون بديار المغرب.

وبودنا أن نحاول هنا تسليط الأضواء على بعض هذه المرويات سيما، وهي أو بعضها على الأقل، مما يحتاج إلى المتابعة والمناقشة نظرا لما ظهر من مصادر تاريخية تكشف عن الحقيقة.

لقد ذكر ابن دنان عن أسباب مقدم الأسرة إلى فاس أن الأمر يتعلق برغبة ميمون في أن يسمع ابنه موسى من الحبر العالم « يهودا هكوهن ابن سوسان » Yehudah Hekkothen الذي كان يتمتع في العاصمة العلمية بصيت طيب.

وفي هذا الصدد يقول إسحاق هكوهن في بحثه بمناسبة مرور ثمانمائة عام على ولادة ابن ميمون : « غادر ميمون وابناه ميمون وداود قرطبة . وصلوا إلى فاس وبها كتب ميمون رسالته التعزية (بالعبرية) ووجهها إلى إخوانه يهود فاس يواسيهم إزاء وضعهم المزدوج : الاسلام في الظاهر واليهود في الباطن، وبعد أربع سنوات كتب ابنه موسى رسالة أخرى بعنوان « المحق » (بالعبرية) يرد فيها على أحد اليهود الفاسيين الذي كتب رسالة يلوم فيها اليهود على إخفاء دينهم ويبين لهم بأنهم بعملهم هذا لا يمكن أن يعودوا يهودا حقيقيين، وفي رسالة موسى بن ميمون هذه يهاجم اليهودي المذكور ويبين فيها أنه يحق لليهود أن يخفوا دينهم إلى أن تحين الفرصة ».

وواضح أن هناك كثيرا من اليهود الذين ظلوا على دينهم في الظاهر وذلك لمكانتهم الاجتماعية في الدولة، ومن بين هؤلاء أسرة ميمون بفاس.

لقد كانت هذه العائلة على ما تقول المصادر العربية أسرة صديقة

لعدد من المثقفين بالمغرب، وخاصة بمدينة فاس، فإذا ما أضفنا إلى هذا أن داود أخا موسى بن ميمون كان تاجرا في الأحجار الكريمة تأكد لدينا صلات العائلة لعلية المجتمع الفاسي.

وقد وجد بعض الكتاب اليهود في موقف بعض الملوك الموحديين من الطائفة اليهودية ما برر لهم الادعاء بأن أسرة ابن ميمون عجلت بمغادرة المغرب فرارا من « الاضطهاد » الذي تعرض له اليهود آنذاك، وهذه قولة أخرى تستوجب التحقيق معها كذلك، لأنها في نظرنا عارية عن الصحة أيضا، لأن الأسرة الميمونية توجهت للمشرق عام 560 هـ = 1165 م، أي قبل موقف المنصور الموحي من اليهود بخمس وثلاثين سنة.

وفي هذا الصدد نذكر بما ورد في « التاريخ الدبلوماسي للمغرب »⁽⁵⁾ من أن ظهور الدولة الموحدية اقترن بظاهرة تعايش المسلمين واليهود تعايشا لم تعرفه السنين الماضية، حيث وجدنا أنهم — أي اليهود — يشتركون إلى جانب المسيحيين والمسلمين في مجالس علمية واحدة على نحو ما نقله ابن الخطيب في كتاب الاحاطة⁽⁶⁾.

وقد استمر هذا أيام الخليفة عبد المؤمن وابنه يعقوب يوسف، ولم يتغير موقف الموحديين إلا عندما اتخذ بعض اليهود مواقف لا تتناسب مع واجب المواطنة، على أن الأمور لم تلبث أن عادت إلى حالتها أيام المأمون الموحي.

وهكذا يتجلى أن ربط مغادرة أسرة ابن ميمون لفاس بقضية

« الاضطهاد » الموحدى ربط لا يتفق مع معطيات التاريخ. لكن الرواية التي تتطلب منا الوقوف عندها طويلا هي تلك التي تقول إن أسرة ابن ميمون كانت تسكن بالمدينة القديمة وبالتحديد في دار المكانة التي توجد قبالة باب مدرسة السلطان أبي عنان. لقد ذكر ابن دنان ومعه عدد كبير ممن كتبوا عن ابن ميمون، ذكروا أنه لا يزال إلى اليوم بفاس بالقسم القديم منها - وهو البالي حيث كان يسكن اليهود - بناء قديم توجد تحت نوافذه نواقيس من نحاس عددها ثلاثة عشر جرسا، ويعتبر هذا المكان، كما تقول المصادر المشار إليها، مشهدا مقدسا عند اليهود، لأن هذا المكان بالنسبة إليهم كان مقرا لابن ميمون مدة سكناه بفاس، وتنقل الحكايات أن تلك النواقيس اتخذها ابن ميمون لمعرفة الأوقات (7).

وما يزال اليهود - يقول ابن دنان - يعتقدون هذا حتى اليوم. ونعتقد أنه بقدر ما كان ابن دنان متساهلا في نقل تلك المعلومات التي قدمها إلينا حول المسكن المحتمل لابن ميمون، كان صادقا عندما أضاف إلى تلك المرويات هذا السطر الذي يقول فيه : « ورأيت هذا في مخطوطات متأخرة تاريخيا ».

فعلا كان المصدر الذي يعتمد عليه حول سكنى ابن ميمون متأخرا، أي غير معاصر ولا حتى مقارب لزمان ابن ميمون . ومعنى هذا أنه يحتاج إلى مراجعة وإمعان نظر . وهذا ما أريد أن أقدمه اليوم للمهتمين بهذا الموضوع .

إن سائر المصادر التاريخية لمدينة فاس كلها تجمع على أن النواقيس

المتحدث عنها هي أجراس متصلة تمام الاتصال بالساعة المائية التي أنشأها السلطان أبو عنان عام 758 هـ = 1357 م أي بعد مائتي سنة من مُقام ابن ميمون بفاس .

فنحن نعلم أنه بعد إنشاء ساعة مائية مماثلة بمدينة تلمسان، قام العاهل المذكور بنصب ساعة بفاس تتوفر فعلا على ثلاث عشرة طاسة تؤدي وظيفة الجرس، وقد وصفها الجزنائي صاحب كتاب « زهرة الآس في بناء مدينة فاس » بأنها « مجانة بطيسان من نحاس، وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صُنجة في طاس، وتفتح طاق على يد مؤقته أي الحسن علي بن أحمد التلمساني المعدل » (8).

ومعنى هذا أن كل ما يذكر عن تحديد مكان إقامة ابن ميمون وأنه كان في الدار التي تنفتح نوافذها دليلا على وصول الساعة... كل ما يذكر عن الموضوع كان عاريا عن الصحة.

وقد حملني هذا التعقيب الخوف من أن تستقر الأسطورة في أذهان الناس فيعمدوا إلى نقشها على جدار الساعة المذكورة على نحو ما فعلوا بمكان بقرطبة قيل إنه « مسقط رأس ابن ميمون »، وعلى نحو ما فعلوا بمكان آخر في طبرية من فلسطين قيل إنه مقبرة ابن ميمون (9) .

وفيما يتصل باستفادة ابن ميمون من اختلاطه بعلماء مدينة فاس أو بالحري برجال القرويين، فهي المقالة التي ردها أيضا حاييم الزعفراني نقلا عن بعض المصادر العبرية والفرنسية وحتى العربية الحديثة . ولم تجد هذه

الرواية معارضا من بين الذين اهتموا بابن ميمون لعدة أسباب :

أولا أن موسى بن ميمون، وهو رجل مثقف، لم يكن يسمح لنفسه أن لا يتصل بعلماء فاس، سيما وقد اعتاد التعرف على نظرائهم في الأندلس.

ولقد استقبل هذا « المسجد - الجامعة » قبل هذا التاريخ بنحو قرنين حبراً من أحبار النصرانية، ويتعلق الأمر بجيرير الذي أصبح البابا سيلفستر الثاني، وذلك حسب ما تفيد بحوث المستشرق الروسي كريستوفيتش (10).

ولا بد أن نستأنس هنا بما ورد أيضا عند المقرئ في نفح الطيب عن القرموطي المرسي الذي كانت له مدرسة يقرء فيها المسلمين والنصارى واليهود (11).

أكثر من هذا أننا نجد في ترجمة الآبلي التلمساني (681 - 757 هـ = 1283 - 1356 م) أنه أخذ بمدينة فاس عن خلوف اليهودي شيخ التعاليم وأبرع أهل عصره في علوم الحكمة (12).

وبعد، فإن مقام أسرة ابن ميمون في المغرب وصلته بمدينة فاس ما تزال بحاجة ماسة إلى تضافر الجهود من أجل البحث والتنقيب عن الحلقات التي ما تزال مفقودة في حياة هذه الشخصية الكبرى.

- (1) مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بغرناطة 469 = 483 المسماة التبيان، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر 1955، ص 130 — 131.
- (2) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة بيروت، 1383 = 1964 ، ص 147.
- (3) البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب — الاستبصار لمؤلف مجهول، ص 202.
- (4) عبد الهادي التازي : تاريخ جامعة القرويين، ج 1 ، ص 66 .
- (5) عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد 1 ، تحت الطبع.
- (6) لسان الدين ابن الخطيب : كتاب الاحاطة، المجلد الثالث، ص 404 .
- (7) Y. D. Sémach; Une chronique juive de Fès : le Yahas Fès de Rabbi Abner Hassarfaty, Hesperis, 1934, T XIX fasc. 1 - 2 p. 79.
- (8) نشر هذا الكتاب مصحوبا بترجمة فرنسية من لدن الفريد بيل، تلمسان سنة 1341 = 1923 ص 40
النص العربي — 96 : النص الفرنسي.
عبد الهادي التازي : التنافس بين مملكة فاس ومملكة تلمسان في المجالات الصناعية والاجتماعية والعلمية،
الملتقى التاسع للفكر الاسلامي، تلمسان، يونيو 1975، ص 63/51 — ساعة مائة ترجع للقرن
الثامن، مجلة البحث العلمي عدد 34 سنة 1984 .
- (9) Haïm Zafrani, Maïmonide, in Les Africains, III, p. 268.
- (10) عبد الهادي التازي : تاريخ جامعة القرويين 1، ص 115 .
- (11) المقرئ التلمساني : نفع الطيب 4 ، ص 130 طبعة بيروت ، تحقيق إحسان عباس.
- (12) الكتاني : سلوة الأنفاس، 3 ، 273.
عبد الهادي التازي : تاريخ القرويين ج 2 ، ص 492 .